الظاهراتية التأثريّة للحقل اللوني في الإبداع الأدبي (دراسة ظاهراتية في الشعر الجاهلي)

*** د/ جلال مرامي**

أستاذ المشارك، عضو هيئة التدريس، جامعة العلامة الطبطبائي - إيران.

د/ قاسم عزيزى مراد

أستاذ مساعد، عضو هيئة التدريس، جامعة طهران، فرع اللغة العربية وآدابها – إيران.

كريم طرفى

باحث دكتوراه، جامعة تربيت مدرس - إيران.

*البريد الإلكتروني: ghasem.azizi@ut.ac.ir

الاستلام	2024/11/15	المراجعة	2024/12/10	القبول	2024/12/30	النشر	2025/1/1

الملخص:

يرتبط اللون بنواحي الحياة المختلفة للإنسان، ولجوء الشعراء إلى توظيفه لا بد من أن يحمل في طياته علاقات اجتماعية وثقافية ونفسية وفكرية. وقد ارتبطت منذ تلك العصور بدلالات خاصة وانبثقت من طبيعة تلك الألوان وتأثيرها في الإنسان. وجرى استخدام الألوان بدلالاتها السائدة في تلك الحضارات تبعًا للمواطن التي يرد فيها اللون. ومن خلال منهج تحليل المحتوى تهدف الدراسة إلى الإجابة على السؤال المطروح لهذا البحث وهو كيف تؤثر البيئة بصفتها ظاهرة تأثرية في تصنيع دلالات الألوان وتحديد مساراتها الثقافية؟ وانتهت الدراسة إلى أن الشعر الجاهلي كان انعكاسًا لما ساد فيه من أفكار وتقاليد. ولم يخرج الشعراء عن طبيعة هذا العصر وكانت هناك خصوصية لكل شاعر في اختيار ألوانه وفقًا لوعيه بهذه الألوان فكانت الألوان الأحمر والأبيض والأسود أكثر توظيفا في الشعر الجاهلي حيث لم تكن هذه إلا ظاهراتية تأثرية من البيئة المحيطة بالشاعر الواعي، فالبيئة شكلت الذائقة اللونية للشاعر الجاهلي وفقًا للظاهراتية التأثرية، واستخدام الشعراء لعدد من الألوان دون الأخرى، فهو عائد إلى عدم التجديد والتحول في الثقافة الجاهلية، كما يدل على أن المجتمع الجاهلي وكأن الإبداع الثقافي والفكري قد انعدم فيه.

الكلمات المفتاحية:

الشعر الجاهلي، ظاهراتية التأثرية، الحقل اللوني، البيئة الجاهلية، الإبداع الأدبي.

The Affective Phenomenology of the Color Field in Literary Creativity (a Phenomenological Study in Pre-Islamic Poetry)

Dr. Jalal Marami:

Associate Professor, **Faculty Member**, **Allameh Tabatabai University – Iran**.

*** Dr. Ghasem Azizi Morad**

Assistant Professor, **Faculty Member**, **University of Tehran**, **Department of Arabic Language and Literature – Iran**.

Karim Terfi

PhD Researcher, **Tarbiat Modares University – Iran**.

*Email: ghasem.azizi@ut.ac.ir

Received	15/11/2024	Revised	10/12/2024	Accepted	30/12/2024	Published	1/1/2025

Abstract:

Color is linked to the various aspects of human life, and poets' use of it must carry within it social, cultural, psychological, and intellectual relationships. Since those ages, it has been associated with special connotations and emerged from the nature of those colors and their effect on humans. Colors were used with their prevailing meanings in those civilizations, depending on the places in which the color occurs. Through the descriptive and analytical approach, the study will seek to answer the question posed for this research, which is: How does the environment, as an influential phenomenon, affect the manufacture of color connotations and determine their cultural paths? The study concluded that pre-Islamic poetry was a reflection of the ideas and traditions that prevailed in it. Poets did not deviate from the nature of this era, and each poet had privacy in choosing his colors according to his awareness of these colors. The process of employing the color field in pre-Islamic poetry is nothing but an influence phenomenon from the environment surrounding the conscious poet. The environment shaped the color taste of the pre-Islamic poet according to the influence phenomena, and the poets' use of a number of colors rather than others is due to the lack of innovation and transformation in the pre-Islamic culture, and also indicates that society Pre-Islamic times, as if cultural and intellectual creativity had disappeared.

Key words: Pre-Islamic poetry, the phenomenology of affect, the color field, the pre-Islamic environment, literary creativity.

المقدمـــــة:

إن اللغة العربية اهتمت باللون، وراعت الخلافات الموجودة في اللون الواحد وانطلاقًا من هذا فإنّ الألوان في الطبيعة تنوعت وكانت بين تباين وتقارب، ولذلك ظهر العديد من المسميات في اللغة لوصف كل لون بدرجاته المختلفة (خليفة، 1987م: 36-37) وكذلك إنّ الوظيفة الدلالية للون تختلف باختلاف الموصوف (صالح، 1982م: 54). ويمكن أن يكون مردّ هذا الاختلاف في الأسماء والمسميات للون الواحد هو يعود إلى اختلاف الحقل الدلالي الذي يرد فيه، فالأبيض في الإنسان قد يختلف عنه في الحيوان. وتعتبر «الألوان من أروع دلالات التعبير الشعري، والانفعالي إن قلنا أقواها تأثيرًا في المتلقي». (عباس، 2021م: 246) فالخيال الشاعري «يستنبط الصور، وتربط بينها، وتبدع منها صورًا جديدة زاهية بالظلال والألوان، وهو ما فعله الشاعر الجاهلي، فقد كرس جهده الفني، وطاقته الأدبية في سبيل الفن عمومًا والشعر خصوصًا» (هاشم، 2015م: 25) وفي هذا الصدد «ظلت الصورة البصرية عند الشاعر العربي القديم المحور الأكثر حضورًا». (جواد، 2015م: 49) وقد جسد الشعر الجاهلي «بطريقة احترافية مبدعة حياة الجاهلي محاكيًا بيئته والسبل التي اتبعها في تعامله مع تلك البيئة متأثرًا ومؤثرًا». (إبراهيم، 2022م: 1) وبقراءة الشعر الجاهلي بصدد مراجعة اللوحات والصور الفنية يظهر أن الشعراء قد اعتنوا برسم لوحاتهم الشعرية كاملة للعديد من المواضيع مثل المرأة والممدوح والناقة والفرس وحمار الوحش والأطلال والسحاب والصيد والحرب والشرب والظعن وغيرها وهي لوحات نابضة بالحياة في أكثرها مشحونة بالعواطف الجياشة وهي تجمع إلى جوار العواطف الحركة والصوت واللون بالتركيز على عنصري الحركة واللون. فعلى أساس رأي "شفيق" إنّ الشاعر في العصر الجاهلي كان يمتلك قدرة فائقة على التفريق بين ألوان الطبيعة المحيطة والتعبير عنها بدقة متناهية في التسميات. (انظر: شفيق، 1967م: 200) ويمكن القول بأن الإنسان الجاهلي كان جاهليًا من حيث العقيدة وعبادته للأصنام لكن هذا لم يمنعه من الرقي الفكري والانفعالي. وكانت لغة العرب في الجاهلية هي نتاج تلك الصحراء والبيئة والجغرافيا، حيث إن هذه اللغة نفسها عندما انتشرت في مناطق متعددة أخرى من الجزيرة العربية والصحراء نتيجة لخصائص بيئية وجغرافية، تنامي المخزون اللغوي للون بشكل كبير وبالاستعانة من اللغات الأخرى دخلت أسماء وصفات للون في الدائرة اللغوية للغة العربية قبل أن تكون لها سابقة من الوجود في الدائرة اللغوية ذاتها ومقارنة الشعر الجاهلي بالشعر العباسي كفيل بالكشف عن هذه الحقيقة. (شفيعي كدكني، 1376ش: 285)

والتأثير والتأثر هي من المصطلحات القديمة التي لاقت تفاعلًا واسعًا من قبل النقاد والمفكرين خاصة في العلاقة والتأثير والتأثر الموجود في الأدب، ووقفوا عند تأثيرات البيئة والمحيط على الأدباء، فمثلًا أبن سلام الجمحي وبعده الجاحظ قد قاما بربط تفسير الظاهرة الأدبية من منطلق إيمانهم بأثر البيئة في الأدب. (آل سالم، 2012م: 212) واستمر البحث في قضية التأثير والتأثر في العصور المختلفة حيث ركز بعض النقاد والمفكرين وأشاروا إلى آرائهم في هذا المضمار مثل هيبولت تين وأرسبت هيجل، فقد كانت البيئة والتأثير منها من مرتكزاتهم الفكرية في حديثهم عن الأدب. مصطلح الظاهراتية التأثرية تطرّق إليه النقد الأدبي وليس ذلك إلا التعبير عن المؤثرات البيئية التي تثبت صحّة الفرضية القائلة بأنّ الأدب هو منتج ثقافي عن البيئة التي ظهر فيها. وأوّل من أيد قضية التأثر من البيئة هو علم الاجتماع وعلم النفس وتبعهم مؤرخو الأدب. والذين أيدوا تأثر الأدب من البيئة المحيطة به بصفة عامة ولا سيما الشعر العربي بصفة خاصة فهم توماس وارتون في كتابه «تأريخ الشعر الإنكليزي»، توماس كارليل في تعليقه على كتاب «في تأريخ الشعر الألماني»، أوغست كونت الذي يدعو في دراساته إلى ظاهرة قوامها دراسة المجتمع والروابط ما بين الأدب والبيئة ولكنّ الرائد والمنظّر الحقيقي في مجال الظاهراتية التأثرية فهو هيبولت تين الناقد الفرنسي الذي دعا إلى القول بأن المؤثرات الثلاثة «الجنس، الزمان والبيئة» لها من الأثر الحتمي والمؤكد على الإنسان وبالمحصلّة على أدب هذا الإنسان. (البقاعي، 1985م: 204-205) والمكوّن الرئيس الذي شكل دراسته للأدب فهو البيئة وفي رؤيته لأثرها، إذ إنه معتقد بأنّ حالة من الخضوع تكتنف الإنسان فيما يخصّ البيئة والتأثر منها بصورة خاصة وفي طريقة التفكير بصورة عامة

والتي تتمثل في الحياة العقلية. وانتهى الحديث عن البيئة وتاثيراتها على أنها «بعناصرها المرئية وغير المرئية تمارس حضورها وتأثيرها في إبداعات الشعوب والأمم». (آدامي، 2021م: 102)

من هنا كانت لغة كل قوم والبيئة المحيطة بها التي يسكنون فيها تختلف عند تعاملها مع الطبيعة من حيث تعدد الألوان واختلافها فإن المجتمع الذي يسكن ويعيش على شواطئ البحر وفي كنف الغابات والاخضرار والأزهار المتعددة الألوان وفي بيئة تكثر فيه الطيور المختلفة؛ يختلف عن المجتمع الذي يعيش في الصحاري المقفرة والحارقة من شدة حرارة الشمس وتطاير الأتربة والتعامل مع الحيوانات ذات الطبيعة الصحراوية وذلك من حيث مخزون المفردات والحاجة إلى تعدد الألوان. يمكن للون في أي بيئة أن يذكرنا بموضوع ما وكل قوم يمكن حسب مقتضى الأحوال وأوضاع بيئية أن يميل إلى لون وأن ينفر من الألوان الأخرى. فإنّ العرب في العصر الجاهلي يحبون اللون الأخضر لأنه يذكرهم بالربيع والأراضي المخضرة الصالحة للرعي أكثر من أي لونًا آخر إذ إن في تلك قضية حياتية تعنيهم بشكل كبير.(سعيد، 1956م: 8) وليس عبثًا عندما يكون اللون الأخضر «أجمل الألوان التي ذكرت في القرآن الكريم: (ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضر)(الإنسان: 21) و (يَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا) (الكهف: 31) و (مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ) (الرحمن: 76) وهذه أوصاف ألوان الجنة وجزاء أهل الجنة وفي مقابل ذلك كانوا يكرهون اللون الأحمر ويقولون: السنة الحمراء وهي السنة التي يكون فيها الجفاف، والموت الأحمر وهو أسوأ موتًا للإنسان وريحُ حمراء كذلك أشد وأسوأ أشكال الرياح». (شفيعي كدكني، 1376ش: 285) ولا يوجد حيز كبير لذكر اللون الأخضر في أشعارهم وذلك للطبيعة الصحراوية القاحلة التي كانوا يعيشون فيها ولكن جاء هذا اللون بصورة مختلفة عندما انتقلت اللغة العربية لأمصار مختلفة كالعراق والأندلس التي تحتفي أشعارهم بتوظيف الألوان المختلفة لتصوير جمال طبيعتهم. ومن هنا يهدف البحث إلى دراسة ظاهراتية التأثرية في الشعر الجاهلي من خلال توظيف الحقل اللوني، وذلك من خلال معرفة كيفية تصنيع الدلالات الخاصة باللون بتأثير من البيئة المحيطة بالشاعر.

أسئلة البحث:

ومن خلال هذه الدراسة يتضح الأمر أكثر فأكثر في الردّ والجواب على الأسئلة التالية:

1. كيف تؤثر البيئة بصفتها ظاهراتية التأثر في تصنيع دلالات الألوان وتحديد مساراتها الثقافية؟
2. كيف يمكن للباحث أن ينطلق من ظاهراتية التأثر للحقل اللوني في الإبداع الأدبي أن يصل إلى دلالات تلك الألوان؟
3. هل الإبداع الأدبي في الحقل اللوني منتج ثقافي أو إنه مؤثر على الثقافة في الحقول المختلفة من الاجتماعية والفكرية والثقافية؟

فرضيات البحث:

ولكي يستطيع البحث أن يجيب عن هذه الأسئلة لا بد من الاعتماد على الفرضيات التالية حتى نرى مدى صحتها أو رفضها أو تعديلها في نهاية المطاف:

1. هناك علاقة جدلية بين المؤثرات البيئية وبين الصورة البصرية للشعر حيث تمارس هذه المؤثرات سلطتها على التصوير الشعري ومن جهة أخرى يختار الشاعر من هذه المؤثرات ما يقارب شعوره الفني.
2. النص الأدبي منتج ثقافي من جهة ومؤثر ثقافي من جهة أخرى حيث إنه في البدء يتأثر من البيئة التي يعايشها ثمّ يعالج الشاعر البيئة بشعوره الفني سعيًا إلى التأثير في الثقافة.
3. لا بد للباحث في دراسة الصورة الشعرية أن يعالج قضية ظاهراتية التأثر منطلقًا إلى كشف الأنساق الثقافية التي تتمحور عليها الصورة الشعرية.

خلفية البحث:

وقد حاز موضوع اللون في الشعر باهتمام الدارسين من القدماء والمحدثين وأن هذا الاهتمام ظهر بشكل واضح وجلي في باب خصصه على بن إسماعيل المعروف ابن سيدة في كتابه **المخصص في اللغة** وهو من أهم المعاجم في المعاني وأشملها وجعله في أهمية اللون الأسود واختلاف درجاته. وأما من الدراسات الحديثة التي تطرقت حول الحقل اللوني في العصر الجاهلي يمكن الإشارة رسالة ماجستير لأمل محمود عبد القادر بعنوان: **اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي: شعراء المعلقات نموذجا**، جامعة النجاح، 2003 م. تدور هذه الدراسة حول الألوان وأبعادها ودلالاتها في الشعر الجاهلي متخذة شعراء المعلقات العشر نموذجًا، وانتهى البحث إلى وجود اتصال بين الموروث الجاهلي والإنساني من خلال دلالات الألوان، كما أشارت بعض العادات اللونية السائدة في المجتمع الجاهلي، وكشف مواطن اللون المختلفة ونظرة المجتمع تجاهها.

كما كتبت شيماء شاكر المشهداني مقالة بعنوان: **اللون في شعر امرئ القيس**، مجلة سر من رأى، عام 2011 م. ويهدف البحث إلى دراسة اللون في شعر امرئ القيس وتوصل إلى أن الألوان ذات أثر في الفكر الإنساني وكانت لها دلالاتها الخاصة، كما أن هذا الشاعر الجاهلي وظف الألوان توظيفًا واقعيًا مرتبطًا بذات الدلالة الواقعية ومدركًا لوظيفة الألوان إدراكًا عميقًا.

ومقالة بعنوان: **الجمال اللوني في الشعر العربي من خلال التنوع الدلالي** لليلا قاسمي حاجيآبادي ومهدي ممتحن، فصلية دراسات الأدب المعاصر، 1390 ش. قامت هذه الدراسة بتحليل استخدام الألوان في شعر الشعراء الجاهليين لفهم تأثير الألوان على أسلوبهم الشعري. وأظهرت نتائج الدراسة أن استخدام الألوان في شعرهم كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالبيئة ونفسية للشاعر، وأن كل لون يحمل طابعًا جماليًا مميزًا. كما تبين أن تكرار استخدام الألوان في الشعر يعود إلى التشابه في المشاهد والصور التي تتكرر في بيئتهم المحدودة.

وكتب سمران نديم متوج أيضًا أطروحة بعنوان «**دلالات اللون ورموزه في الشعر الجاهلي**» عام 2004م. هدفت الدراسة إلى استكشاف دلالات الألوان ورموزها في أشعار شعراء العصر الجاهلي، من خلال تحليل مستويات النصوص الفنية التي تعكس تجربة الشعر الجاهلي. واستنتجت في النهاية أن العرب كانوا يمتلكون معرفة دقيقة بالألوان وقدرة على التمييز بينها. كما كشفت الدراسة عن قيم تعبيرية ومعانٍ، ورموز نفسية تحملها الألوان، وتتأثر بالسياقات الاجتماعية والجغرافية، والعادات والمعتقدات الثقافية والدينية، بالإضافة إلى ارتباطها بالخصوصية النفسية والقدرات الإدراكية للإنسان.

ففي هذه الدراسات التي ذكرت، تحدث باحثوها عن قضية التوظيف في شتى أنواعها ولم يتطرقوا إلى موضوع ظاهراتية التأثر ولهذا وجد البحث الشعر الجاهلي متمثلًا بشعرائها الكبار؛ أصحاب المعلقات وتوظيفهم للون وطرح قضية الظاهراتية التأثرية كمصدر أساسي مؤثر في اختيارهم للألوان في شعرهم، موضوعًا جديرًا بالاهتمام.

منهج البحث

تحاول الدراسة من خلال المنهج الوصفي التحليلي واختيار نماذج من الشعر الجاهلي التي ترد فيها اللون بمسمياته المتعددة والمختلفة، أن تقوم بدراسة ظاهراتية التأثرية في الحقل اللوني واستخراج أبرز النقاط والملاحظات في هذا الشأن.

اللون لغة واصطلاحًا

جاء في التعريف اللغوي بأن اللون هيئة كالسواد والحمرة (ابن منظور، 1994م، ج 13: ص 260) وسحنة الشيء من ذلك اللون: لون الشيء. (ابن فارس، 1949م: 223) أما مصطلح اللون في

الموسوعات الحديثة، فهو خاصية ضوئية تعتمد على طول الموجة، حيث يتحدد اللون الذي يظهر لنا من جسم ما بناءً على الضوء الذي يعكسه. (غربال، 1986م: 181)

اللون في الموروث العالمي والعربي

تعتبر الألوان عنصرًا أساسيًا في تجسيد الواقعية في الشعر، حيث تحمل تراثًا ثقافيًا غنيًا تشمل بنى أسطورية وحضارية تعكس ثقافات الشعوب، مما يجعلها تحمل دلالات جمالية عميقة. (محمود خليل، 1994م: 194) فقد أدخل الإنسان القديم الألوان في طقوسه وعباداته، فظهرت في اتخاذهم لبعض الملابس أو بعض السلوكيات أو الأعراف المجتمعية حيث كانت تميز الطبقات الاجتماعية عن بعضها البعض بالألوان. (متوج، 2004م: 185-190) كما اتخذت في العصور القديمة ألوانًا خاصة رمزًا للمناسبات والمعتقدات والاحتفالات كما هو الحال في الموروث الإغريقي والروماني والإسلامي، فعلى سبيل المثال ارتدى المسلمون ثيابًا بيضاء للدلالة على الطهارة والإيمان ولا سيما الحجاج، وكذلك الرومان كانوا يصبغون وجوه أطفالهم بالنيلة الزرقاء حتى يقيهم من الحسد، وفي العهد الأشوري كان الكاهن يرتدي قميصًا أبيض لارتباط هذا اللون بالقداسة (جودي، 1997م: 46)، فهذه العادات والتقاليد نتيجة تأثيرات ذهنية في المجتمع بالألوان عبر العصور وانطلاقًا من هذا فإنّ قضية الظاهراتية التأثرية هي من العناصر والمقولات الثقافية لكل حضارة من حضارات العالم والأديان والمذاهب المختلفة. وقد كان الناس في العصر الجاهلي يربطون جل الأشياء من حولهم بالأساطير والخرافات المنسوجة لخوفهم من الطبيعة المحيطة بهم وتقلباتها وأسرارها، فكانوا يعتمدون على ما يسمعون من أساطير خارقة للعادة. وإن الإنسان الأول ربط بين الألوان والعالم المدني من حوله، وربط بين الأشياء والقوى الخفية، وقد غيرت الألوان عادات الشعوب وتقاليدهم، حتى صارت جزءًا من هذا التراث وقد ربطوا بين اللون والخرافة واللون والدين واللون والتقاليد. (عمر، 1997م: 161-165) ومن ثمّ فإنّ التراث العربي لا سيما الجاهلي قد اعتنى بالحقل اللوني ومن هذا المنطلق قد طرحت قضية الظاهراتية التأثرية وذلك نتيجة للبيئة المحيطة بذلك التراث. وإنّه يأتي في مقدمة الألوان شهرة، انتشار الأسود والأبيض، فهما بداية لونين متضادين، مرتبطين بالليل والنهار، والظلمة والنور، لذلك هما لونان متداولان في جميع الحضارات ولغاتها ويلي ذلك مكانة اللون الأحمر، فهو من أوضح الألوان لارتباطه بالدم، وعلاقة ذلك بالقرابين والحروب، وعليه جرى التركيز على هذه الألوان الثلاث فقط في هذا البحث.

اللون في الإبداع الأدبي وأهميته

إن أهمية اللون قديمة قدم الإنسان في اختياره للألوان، وحبه لبعضها ونفوره من بعضها الآخر، وانعكاس هذه الأهمية على القصيدة جعل للألوان دورًا مهمًا في بنائها وانسجامها ومن ذلك قول الجاحظ بأن «الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير». (الجاحظ، 1945م: 132) وجاءت أهمية اللون في الشعر لأنه وسيلة مهمة من وسائل التعبير والفهم. (همام، 1930م: 1) ولأن دلالاتها كانت أحد المجالات القليلة التي يمكن فيها مقارنة النظام اللغوي. (بدوي، 1979م: 86) كما أن توظيف اللون يتفاوت بتفاوت كيفية توظيف واستخدامها من قبل الشعراء، فقد يبرز ويتألق ويتوهج في نص شاعر ما وقد تتضاءل فاعلية التشكيل اللوني لدى شاعر آخر وذلك بتضاؤل تفاعله وتواصله مع اللون. لذا؛ سعى البحث إلى التعرف على اللون وسبب توظيفه في الشعر كعنصر أساسي في البناء الأدبي من خلال الظاهراتية التأثرية في اختيار الشاعر الجاهلي للون وما يمثله من دلالة في الشعر والجمالية التي هي من أهم الصفات التي يستطيع اللون من خلالها أن يضيف من الشاعرية والدلالة والمعاني والصور في سياق النص الأدبي، وأقتصر هذا البحث بذكر اللون الأسود والأبيض والأحمر حتى لا يطول المقام وكذلك لأنّ هذه الألوان الثلاثة هي أكثر تداولًا في الشعر الجاهلي بالمقارنة مع الألوان الأخرى.

وتحمل الألوان دلالات متعددة بتأثير من السياق الذي تُستخدم فيه، وبالتالي تكتسب معاني عميقة، وتعكس دلالات الألوان هذه الجذور العميقة، وتتجاوب مع حياة الناس في مختلف الظروف والبيئات نظرًا لمرافقته لتطور الحضارة عبر تاريخها المتمادي والطويل. ومن هذا المنطلق فإنّ قضية الظاهراتية التأثرية التي قد طرحت كثيرًا ما في الأوساط والمحافل الأدبية في العصر الحديث تنطبق بأسرها على

الشعر الجاهلي وذلك من خلال المؤثرات الثقافية والفكرية والاجتماعية والإيدئولوجية وكذلك التاريخية، فقد كانت الألوان تعتبر عنصرًا مهمًا في الشعر العربي، فعلى الرغم من قلة التنوع اللوني في البيئة الصحراوية، إلا أن النصوص الشعرية القديمة كانت غنية بالدلالات اللونية، ربما لتعكس الجمال والحيوية في عوالم خيالية تعوض عن جفاف الصحراء. وهكذا، أولى العرب اهتمامًا كبيرًا بالألوان في شعرهم وذلك يظهر على ألسنة شعراء العربية وكتابها.

فبالعودة إلى الأدب الجاهلي يمكن أن يجد القارئ أن للألوان مدلولات خاصة، وأنها لم ترد مصادفة في أشعارهم وأدبهم، بل دلت على معان وضعت وفق ظروف خاصة بهذه البيئة الصحراوية المترامية، لكن هذا المعنى أخذ أبعادًا أخرى بفعل الزمن إلى وقتنا الحاضر. وإنّ الألوان تعتبر جزءًا أساسيًا من التشكيل الجمالي في الفنون والأدب، ويمكن من خلالها استكشاف عوالم تعبر عن أفكار المبدع الذي سطر إبداعه في قالب الشعر أو الكتاب أو الرسم. (المغربي، 2004م: 2) وانطلاقًا من هذا تميزت اللغة العربية من بين اللغات الأجنبية قديمًا وحديثًا بما يتمثل بدقة التعبير من تداخل الألوان الأصلية وتمازجها وما ينشأ من تموجات دقيقة في مدلولاتها وطبيعة وجودها. إن اللون عنصر هام في تشكيل النص الشعري فيعطي النص قيمة فنية عالية، فحين يصبح عنصرًا من عناصر القصيدة، ويتحقق ذلك التناسخ ويُقصد به انتقال روح اللون من وجوده الكيميائي إلى وجود علوي تنهض به اللغة.

اللون الأبيض

من الألوان الرئيسة وبمعية اللون الأسود النقيض له، يشكلان أهم لونين من بين الألوان كلها بحيث تتشكل الألوان الأخرى منهما. الأبيض ضد الأسود، وهو لون الطهارة والنقاء والثقة والتواضع والرقة والسلام. (محمدعلي، 2001م: 130) والأبيض هو النور الذي يرمز منذ القدم إلى الذات الإلهية (صحناوي، 1981م: 45)، ويحتل اللون الأبيض المرتبة الثانية في قائمة الألوان المميزة لدى الثقافات والشعوب، بعد اللون الأسود. (عمر، 1997م: 111) ويُعد اللون الأبيض هو الذي يثير في الإنسان شعورًا من الجمال والهدوء والتفاؤل والفرح والراحة النفسية. وقد ورد في العربية كثير من الألفاظ الدالة على اللون الأبيض واختلاف درجاته وتفاوت نقاوته وتشعب دلالاته.

وقد رتب درجاته الثعالبي وأشار إلى الألفاظ التي تدل عليه فهي على سبيل المثال تأتي في الوصف كرجل أزهر، وامرأة رعبوبة، وبعير أعيس، وظبي آدم وثوب أبيض، جبل أعبل. (الثعالبي، 2000: 120) كما يمكن أن تذكر بعض الألفاظ التي تدل على هذا اللون بشكل غير مباشر مثل القمر، البدر، الشهاب، الصبح، الفضة، الأقحوان، الجمان، مثلما هو موجود في الشعر الجاهلي. وتختلف دلالة اللون باختلاف موقعه ويكون سلبيًا أو إيجابيًا، فاللون الأبيض عرف عبر العصور بدلالاته الإيجابية؛ دلالات الحسن والجمال عند المرأة والسيادة عند الرجل ومن الدلالات المحببة لهذا اللون إذا كان في الأسنان، يقول طرفة بن العبد:

بادِنٌ تجلو إذا ما اِبتَسمَت عَن شتيتٍ كأَقاحِ الرَمل غر (طرفة بن العبد، 1987م: 41)

فالشاعر أظهر جمال أسنان محبوبته حيث شبهها بالأقحوان النابت في الرمل، إذ يشتد بياضًا مع أشعة الشمس المنعكسة من الرمال، وزاد تأكيد اللون بلفظ «غر» وليس أدل على الجمال الساحر من بياض محبوبة. فهنا استلهم الشاعر معنى اللون الأبيض من زهور الأقحوان وجماله المتواجدة بالطبيعة. وكذلك في قول امرؤ القيس:

وَبَيْضَةِ خِدرٍ لَا يُرامُ خِباؤُها تَمَتَّعتُ مِن لَهوٍ بِها غَيرَ مُعجَلِ (امرؤ القيس، 1990م: 55)

كَبِكرِ مُقاناةِ البَياضِ بِصُفرَةٍ غَذاها نَميرُ الماءِ غَيرُ المُحَلَّلِ (امرؤ القيس، 1990: 61)

شبه الشاعر محبوبته بلون بيض النعام لأن لون هذا البيض يخالط بياضه قليلًا من الصفرة، لأن صفة البياض الخالص في الإنسان تعد من أقبح الصفات. والبياض الذي شاب بصفرة وهو البياض الذي

يعتبر أفضل الألوان عند العرب، فهو اللون الأزهر الذي شاب بياضه شيئًا من الأحمر أو الأصفر ويمكن أن يكون استلهم الشاعر في نصه هذا اللون لأن هو لون كوكب الزهرة «الحب» عند العرب وهو بذلك عائد إلى طقوس دينية كانوا يقيمون بها الكهنة في المعابد. ومن هنا فقد كان المعنى الموضوع لهذا اللون المحبب نظرًا لكل الاحتمالين هو أيضًا قد جاء من الطبيعة وحضر في قاموس الشاعر. أما البياض في الشَعر فقد كان مشؤومًا كرهه العرب ونفروا منه في الرجل والمرأة على حد سواء. وقد ذكر الشيب للدلالة على كبر السن وتقدم العمر، والمشيب قبل الأوان والمصائب والأهوال التي تمر بالإنسان. ومما قيل في الشيب قول عنترة:

ذَنبي لِعَبلَةَ ذَنبٌ غَيرُ مُغتَفِرِ لَمّا تَبَلّجَ صُبحُ الشَيبِ في شَعري (عنترة بن شداد، 1995م: 68)

وفيه يقول عبيد بن الأبرص:

بل إن تكن قد علتني كبرة والشيب شين لمن يشيب (عبيد بن الأبرص، 1975م: 24)

وفيه يصرح بكرهه للشيب، وأن الشيب عيب يشين صاحبه الذي أصبح بآخر سنين عمره وأنه ينذره بالموت واقتراب الأجل. ولأن متلازمة الموت كانت تشكل هاجسًا مستمرًا للإنسان الجاهلي وهو يسعى إلى الهروب منها، فهذا اللون في الشعر يذكرهم بالموت ونهاية الحياة، فمن هنا جاءت دلالة هذا اللون في المقام هذا، سلبية وعلى النقيض مما هو موجود في توظيف اللون الأبيض بشكل عام. ومن جهة ذكر الحيوانات باللون الأبيض، فيقولون المرأة ترحل على الإبل الأبيض، والشاعر يقطع الفيافي بناقته البيضاء، وهو يسابق الريح بحصانه الأبيض، وفي هذا المعنى يوجد قول عبيد بن الأبرص:

والعيس مدبرة تهوي بأركبها كأنهن نعام نفر معط (عبيد بن الأبرص، 1975: 80)

وقد اتخذ الشاعر معنى الأبيض الإيجابي من الناقة البيضاء (العيس) التي كانت رفيقة الإنسان الجاهلي في سفره وترحاله، فهذه الناقة سريعة في خطواتها كالنعام التي ذكر بياضها لبيان سرعته في العدو وقد أتخذ الشاعر صورته من الطبيعة والبيئة، وهكذا هو الحال بالنسبة للون الذي يذكر للحيوان. وفيه يقول زهير:

كأنّ بَريقه بَرَقانُ سَحْلٍ جَلا عن متن حُرُضٌ وماءُ (زهيربن أبيسلمى، 1963م: 16)

وهنا شبه الحمار بالثوب الأبيض البراق وكان البياض أبرز هذه الصفات. ومن الحيوانات التي وصفت بالبياض أيضًا البقرة والثور الوحشيين، وقد استلهم الشاعر معنى اللون من الطبيعة وحيواناتها ولاختيار الشعراء صورهم من البيئة المحيطة ذهب النقاد إلى أن التصوير في الشاعر الجاهلي كان حسيًا، يعتمد على الحواس والتجسيد أكثر من الاعتماد على المشاعر والأحاسيس. ومما جاء في وصفهما قول لبيد:

وَتُضيءُ في وَجهِ الظَلامُ مُنيرَةً كَجُمانَةِ البَحرِيِّ سُلَّ نِظامُها (لبيد بن ربيعة، 1999م: 220)

فلم يكتف الشاعر بوصفها بالبياض بل أحاطها بهالة من النور، فقد وصفها وشبهها باللؤلؤ المضي لشدة بياض البقرة، ويظهر اللون الأبيض وسماته من خلال الطبيعة البحرية وقد تكرر الوصف باللؤلؤ في الشعر الجاهلي. ووصف العرب بلون الأبيض أيامهم التي يفخرون بها للدلالة على شرفها والنصر الذي يتحقق فيها، فيقول عمرو بن كلثوم:

بِأَنّا نُوردُ الرَّايَاتِ بِيضًا وَنُصْدِرُهُنّ حُمْرًا قَدْ رَوِينَا

وأيَّامٍ لَنَا غُرٍّ طِوَالٍ عَصَيْنَا الْمَلْكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا (عمرو بن كلثوم، 1991م: 68)

وقد فسر التبريزي الغر هنا بالبيض. (التبريزي، 1998م: 262) وقد جاء بهذا المعنى من اللون لتلازم ذلك مع ما يعنيه الغر، فكانت هذه الصفة اللونية تأتي للتعبير عن الناقة أو الحصان الذي يتميز ببياضه الناصع. والبياض أيضًا كان كناية عن الصدق والحق وفي ذلك يقول النابغة:

أتاكَ بِقَوْلٍ هَلْهَلِ النّسجِ كاذبٍ ولم يأتِ بالحقّ الذي هو ناصِعُ(النابغة الذبياني، 1996م: 81)

فهذا الواشي كان كاذبًا ولم يأت بالحق الناصع الأبيض بل كان كلامه أسود لإخفائه الحقيقة. وهنالك مواضيع تطرق اليها الشاعر الجاهلي ومنها الظواهر الطبيعية التي يبرز فيها الأبيض السحاب، وقد تفاعل الشعراء به لأنه كان يعنيهم بشكل كبير ويؤثر فيهم وذكر النابغة الذبياني لون الجبل بالأبيض أيضًا:

بِجَمْعٍ كَلَوْنِ الأَعْبَلِ الْجَوْنِ لَوْنُهُ ترَى في نوَاحِيه زُهَيرًا وحِذْيَمًا(النابغة الذبياني، 1996م: 109)

والأعبل كما ذكر سابقًا هو الجبل الأبيض ذو الحجارة البيضاء وقد شبه الجيش به والجون من الأضداد، وهي تعني الأسود والأبيض، وهنا جاءت بمعني الأبيض. وتطرق كثيرون لمفهوم الأضداد في الأدب العربي حيث يكون لكلمة أو لفظ الواحد معنيين مختلفيين وقد اعتنى اللغويون القدماء مثل ابن الأنباري وابن دستوريه والأصمعي وابن سكيت لهذا التضاد وجعلوا له في كتبهم مساحة لذكر الألفاظ التي يوجد فيها ذلك التضاد. ويوجد في العربية عدد من ألفاظ اللون يكون فيها شبه من الضدية في معنى اللون وذكرت في كتب اللغة أكثر العرب تقول في الناس أسود وأحمر، وتعني بالأحمر هو الأبيض.(ابن الأنباري، 1987م: 346) وقد جاء على لسان عنترة بن شداد:

لَعَلَّ عَبلَةَ تُضحي وَهيَ راضِيَةً عَ لي سَوادي وَتَمحو صورَةَ الغَضَبِ (عنترة بن شداد، 1995م: 104)

وفي معنى عبلة، يقال العبلاء الطريدة في سواء الأرض حجارتها بيضٌ كأنها حجارة القداح وربما قدحوا ببعضها، وكأنها البلور. وقال ابن شميل: الأعبل: حجر خشن غليظ يكون أحمر، ويكون أسود. (الأزهري، 2001م، ج 3: 2310) وكذلك الجون من الأضداد، ففي قول لبيد بن ربيعة:

جَوْنٌ بِصارةَ أقفرتْ لِمَراده وخَلا له السُّوبانُ والبُرْعومُ (لبيد بن ربيعة، 1999م: 154)

ويقصد الشاعر بالجون هنا حمار الوحش، وهو يوصف بالبياض. ويعتبر جون الغبار الأسود وشبهوا في بعض الأحيان بالسحابة (ابن الأنباري، 1987م: 114)، والجون هو من ألوان الإبل فإذا اشتد سواد لون الإبل فقالوا للونه جون. (الثعالبي، 2000م: 67-68) وعليه فإن كلا المعنيين يشيران إلى استلهامهما من الطبيعة والبيئة وهو تترجم حرفيًا في النص الشاعر وتعابيره. فإن استخدام الألوان من قبل الشاعر الجاهلي في رسم الصورة الشعرية يعتبر من أهم المؤثرات على الملمح الجمالي من البيئة وكذلك هو نوع من ظهور الظاهراتية التأثرية في الشعر الجاهلي، إذ أدرك أن اللون الأبيض هو أصل الأصل في الألوان جميعا، واللون الأبيض هو من الألوان أكثر تداولًا في الشعر الجاهلي وأنه مقياس جمال المرأة وطهرها وعفتها، كما أنه صفة تتميز بها نظرته إلى بعض المخلوقات، والموجودات مثل الحصان والناقة والسيف. ومردّ هذا الأمر يعود إلى قضية الظاهراتية التأثرية التي قد تمّ الاعتراف بها من قبل علماء سيكولوجية أدبية وذلك في أنّ البيئة بكل مقوماتها ظاهرة لها تأثيراتها على النص والأدب والتي لا يمكن الإغماض عنها في تبيين دلالة الحقل اللوني إذ إنّ المجتمع في العصر الجاهلي له رسومات ترسم بدقّة ملامح الجوانب المادية المتناقضة وتجسد الشخصية العربية في أنّه يشعر بأنّ أساس الثقافة هو عدم اللحاق بالأمم الأخرى ومن هذا المنظور الفكري يمكن أن يتم التعليل بأنّ شيوع استعمال اللون الأبيض يدلّ على أنّه لا يعتبر ما يتلوّن بغير الأبيض أصلًا هامًا في حياته الثقافية إذ إنه ليارد أن يتم لحاق ثقافته بثقافات الشعوب وذلك بكل مقوماتها من الإبداع الأدبي والاجتماعي إلى المنظور الفكري والتعاملي.

اللون الأسود

اللون الأسود يمثل غياب الألوان كلها فهو في حقيقة الأمر ليس لونا، بل حالة انعدام الألوان.(الهدروسي، 2003م: 19) دلت اللغة العربية على اللون الأسود بألفاظ كلها تشير إلى ما هو ضد الجمال والحياة، أو ما هو مناف للطمأنينة والهدوء والتفاؤل والفرح والراحة النفسية، كما خصته بمفردات تصفه وتحدد درجاته كما ذكرها الثعالبي أسود حالك، وأحم، وفاحم،...(الثعالبي، 2000م: 123-125)

وظهرت دلالة الأسود في القرآن الكريم في غير موقع ووصف، ومثل ذلك في القرآن في قوله تعالى: [يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتسْوَدُّ وُجُوهٌ فأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتمْ بَعْدَ إِيمَانِكمْ فَذُوقوا الْعَذَابَ بمَا كنْتمْ تكْفرُونَ](آل عمران: 106) فيرتبط اللون الأسود بالموت والحزن والحداد والخوف غالبًا، واللون يستمد دلالته من السياق الذي يوظف فيه لأن السياق وحده هو الذي يحدد وظيفة اللون وفاعليته. ويعتبر اللون الأسود من الألوان الأكثر شيوعًا في الشعر العربي، حيث يأتي بعد اللون الأبيض في الترتيب من حيث التوظيف والتكرار، ويُعد الأسود من أكثر الألوان دلالة، وهذا أمر طبيعي إذا ما ارتبط ذلك بقضية الظاهراتية التأثرية بحيث يرتبط اللون الأسود بأشياء مختلفة بما هو موجود في البيئة والإنسان، فقد يُعتبر هذا اللون في بعض الحالات ذات دلالة إيجابية ومصدرًا للجمال والقوة، بينما يُعتبر في حالات أخرى ذات دلالة سلبية ومصدرًا للحزن والتشاؤم. ومن ذلك قول النابغة في وصف محبوبته:

وَبِفاحِمٍ رَجلٍ أَثيثٍ نَبتُهُ كَالكَرمِ مالَ عَلى الدِعامِ المُسنَدِ(النابغة الذبياني، 1996م: 41)

ويقول امرؤ القيس واصفًا محبوبته:

وَفَرْعٍ يَزينُ الْمَتنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ أَثِيْثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ المُتَعَثْكِلِ(امرؤ القيس، 1999م: 16)

فالنابغة يصف شعر المرأة بالأسود الفاحم الكثيف المنسدل كأغصان الكرمة وهي صفات محببة في المرأة وشعرها، بل جعله كثيفًا ليزيد في حدة سواده. كما امرؤ القيس يصف سواد شعر المحبوبة بأسود فاحم، وهي صفة جمالية محببة في المرأة هذه لدى الشعراء. ولا يقتصر وصف السواد والتغني به على شعر المرأة بل هي صفة محببة في شعر الرجل كذلك، وهي صفة مختصة للشعر، وجاء عن الأسود، فاحم أي كلون الفحم.(الثعالبي، 2000م: 68) وفي هذا المعنى يقول امرؤ القيس:

وَقالَت بِنَفسي شَبابٌ لَهُ وَلِمَّتُهُ قَبلَ أَن يَشجُبا

وَإِذ هِيَ سَوداءُ مِثلُ الفُحَيمِ تَغَشّى المَطانِبَ وَالمَنكِبا(امرؤ القيس، 1999: 74)

فقد نهي الشاعر هند في هذه القصيدة عن زواج الرجل الضعيف فاعتذرت بهذين البيتين وحجتها فيهما الشعر والشباب. ومن هنا يتبين أن المعنى قد اقتبسه الإنسان الجاهلي بما فيه الشاعر من بيئته، ودخل هذا التصور من اللون من خلال الطبيعة المحيطة به. ويقول الأعشى في إحدى قصائده مشيرًا إلى اللون الأسود:

وإذا لمتي كجناح الغداف ترنو الكعاب لإعجابها(الأعشى، 1992م: 24)

كما هو واضح فقد أعاب الشعراء باللون الأسود ومدحه، ومحاولتهم البحث عن الصور لتدل على شدة هذا السواد فهو يشبه بجناح الغراب الأسود الضخم وبالفحم، وبالظلام وغيرها من الأمور البينة السواد. أما في العين فقد مُدح السواد أيضا، ولا سيما إذا كان بينًا وذلك في العين الحوراء حيث تجتمع شدة السواد مع شدة البياض المحيط به مما يبرزه بشكل أجلى حتى نافت عن الخمسة والعشرين بيتًا لدى شعراء المعلقات وحدهم ومن قول عبيد بن الأبرص:

وَإِذ هِيَ حَوراءُ المَدامِعِ طَفلَة كَمِثلِ مَهاةٍ حُرَّةٍ أَمِّ فَرقَدِ(عبيد بن الأبرص، 1975م: 57)

حوراء المدامع تعني اسوداد المقلة كلها كعيون الظباء قالوا، والحور أن يكون البياض محدقًا بالسواد كله.(ابن منظور، 1994م، ج2، 155) ويمكن أن لا يقصد بذلك المعنى السابق وانما والعرب تسمي نساء الامصار لبياضهن وتباعدهن عن قشف الأعراب بنظافتهن.(ابن منظور، 1994م، ج4: 219) هذه صفة في هذا اللون لا توجد بكثير من الألوان. وهذا عنترة يدافع عن لونه، وحجته في ذلك أن السواد لون العيون المحبّب فلا ينبغي أن يعاب، فيقول:

وَما وَجَدَ الأَعادي فِيَّ عَيبًا فَعابوني بِلَونٍ في العُيونِ(عنترة بن شداد، 1995م: 149)

فالأسود في العين لون محبّب يدعو إلى المدح أو الفخر لأنه صفة جمال وحسن، والسبب في ذلك أن هذا هو اللون السائد في الجزيرة العربية. وممن ذكره الحارث بن حلزة اليشكري بقوله:

وبالسَّبِيكِ الصُّفْر يُضْعِفُهَا وبالبَغَايَا البِيضِ واللّعْسِ(الحارث بن حلزة، 1994م، 82)

والبيت ورد في معرض مدحه للملك المنذر بن ماء السماء الذي يهب العطايا، فلا بد أن تكون العطية من أفضل الأشياء وأجملها لتليق بمقام الممدوح، فالمال من الذهب، والجواري من النساء البيض سود الشفاه هنا كذلك اجتماع الأبيض والأسود في وضوح الجمال وحسنه. واللعس هو الذي في شفاهم سواد.(ابن منظور، 1944م، ج6: 207) وعد البعض اللون الأسمر أو المائل إلى السواد لون محبب لدى كثير من الشعراء في أشعارهم وهو ما عرف باللمي ووصفوه بالحسن، ودخل كثيرًا في تشبيهاتهم وصورهم الفنية، وخاصة في رسم صورة المرأة، فقال طرفة بن العبد:

وَتَبْسِمُ عن أَلْمَى كأنّ مُنَوّرًا تَخَلّلَ حُرّ الرّمْلِ دِعْصٍ له نَدِ(طرفة بن العبد، 1987م: 89)

أراد التبسم عن الثغر ألمي اللثات، فاكتفي بالنعت عن المنعوت. وفي البيت دلالة على جمالية اللون الذي يزيد جمالًا في تمازجه مع ألوان أخرى ولمعان النور وبريقه، فيشترك أكثر من عنصر في إبداع صورة جميلة لا تزال النساء تبدع الصورة المتمازجة في وضع إطار أسود حول الشفاه لإظهار الحمرة فيها. ولفظ اللمي هي الشفاه السود. وسُمرة الشفتين واللثات التي يستحسن(ابن منظور، 1994م، ج15: 258) ولتلخيص موقف الشعراء الجاهليين من هذا اللون نستطيع ذكر بيت ذو الرمة حيث يقول:

لَمياءُ في شَفَتَيها حُوَّةٌ لَعَسٌ وَفي اللِثاتِ وَفي أَنيابِها شَنَبُ(ذو الرمة، 2006م: 32)

الأحوى أي أسود ليس بشديد السواد ويقال جميم أحوى: يضرب إلى السواد من شدة خضرته، وهو أنعم ما يكون من النبات، وفي قوله تعالى:(والذي أخرج المرعى فجعله غثا أحوى)(الأعلى: 4-5)، ويقال النبت الذي قد اسود من القدم والعتق. الأحوى الأسود من الخضرة والكميت الذي يعلوه سواد.(ابن منظور، 1994م، ج14: 207) وفي اللثة ليست أقل شأنًا في جمالها إذا ظهر، والأسود أو المائل للسواد فيها يدل على صحتها من باب، ومن باب آخر جمال فيه طبيعي، وقد يكون اللون مجلوبًا بمادة كانت في البيئة العربية القديمة وهو ما يسمى بالإثمد الذي يصبغ بتلك الصبغ الجميلة، ومنه أيضًا قول طرفة بن العبد في وصف ثغر المرأة عند تبسمها:

سَقَتْهُ إيَاةُ الشَّمْسِ إلاّ لِثَاتِهِ أَسِفَّ وَلَمْ تَكْدِمْ عَلَيْهِ بِإِثْمِدِ(طرفة بن العبد، 1987م: 20)

ويقول النابغة الذبياني:

تَجْلُو بِقَادِمَتَيْ حَمَامَةِ أَيْكَةٍ بَرَدًا أَسِفَّ لِثَاتُه بالإِثْمِدِ(النابغة الذبياني، 1996م: 40)

جاء عن الأثمد هو ما يُصنع منه الكحل، ويُقال: إن الأثمد هو نوع من الكحل، أو أنه يشبهه. ويقال، يجعل الليل أثمدًا أي يسهر فجعل سواد الليل لعينيه.(ابن منظور، 1994م، ج3: 105) وقد وصف النابغة وقبله طرفة الشفة بأكملها بالسواد وليس فقط اللمي أو اللثة، والشفة اللعساء من أجمل الشفاه في وصف عديد من الشعراء، يقول طرفة بن العبد:

كأنّ السّلاحَ فَوْقَ شُعبَةِ بانَةٍ ترى نفخًا وردَ الأسرةِ أسحما(طرفة بن العبد، 1987م: 70)

فهو هنا يذم ابن عمه عبد عمرو، وقد وصفه باللين، والانتفاخ والتجعد والسواد باب الثلب والمذمة. وهو يمكن أن يكون أسحم اللون المختص للأنسان حيث أن هذا اللون في المرتبة الرابعة من حيث ترتيب شدة السواد بعد أسمر وأصحم وآدم.(الثعالبي، 2000م: 68) يقول عمرو بن كلثوم في وصف النبتة التي يأكلها الإبل:

وَنَحْنُ غَدَاةَ أَوقِدَ فِي خَزَازٍ رَفَدْنَا فَوْقَ رِفْدِ الرَّافِدِينَا

وَنَحْنُ الحَابِسُونَ بِذِي أَرَاطَي تَسَفُّ الجِلّةَ الخُورُ الدَّرِينَا(عمرو بن كلثوم، 1991م: 96)

يقول مفاخرًا بإعانة قومه لبني نزار في محاربتهم اليمن، حبسنا أموالنا ويقصد النوق في موضع الذي يسمى خزازي حتى سفت النوق الغزار النبت القديم وأسوده لإعانة قومنا ومساعدتهم على قتال أعدائهم وهو يريد بكلمة خوراء الدرين الأسود من النبت القديم.(الزوزني، 1985م: 130) وقيل الدرن الوسخ وقيل تلطخ الوسخ، الدرين والدرانة يبس الحشيش وكل حطام من حمض أو شجر(ابن منظور، 1994م، ج1: 153) ومن معاني القوة التي الشعراء إشار إليها بهذا اللون قول عنترة في وصف قوة الخيل واقتحامها الخطر:

والخيلُ سُودُ الوجوه كالحةٌ تخوض بحر الهلاكِ والخطر(عنترة بن شداد، 1995م: 73)

فاللون الأسود عمومًا قد يكون محببًا حينًا ومكروهًا حينًا آخر، فالسواد مكروه في بشرة الإنسان لعلاقته بالعبودية والتشاؤم، لعل أكثر الشعراء استخدامًا للألوان، ووعيًا بها بالأخص أللون الأسود هو عنترة العبسي وذلك لإحساسه بالظلم من هذه المعاملة الدونية في مجتمعه، وكان لهذا البعد ظهور في شعر الشعراء، وكان الدفاع لدى الشعراء الأغربة عن لونهم بالكلمة والسيف على حد سواء. فعنترة العبسي بسبب لونه كان غير محبوب، ولعدم قدرته على تغيير لونه، فاستعاض بشعره وفروسيته لينتزع الاعتراف بنسبه وبحقوقه الاجتماعية خلافًا لغيره من السود. فقد ذكر قرابة عشرين بيتًا يدافع عن لونه وفي ذلك يقول عنترة:

تُعَيِّرُني العِدا بِسَوادِ جِلدي وَبيضُ خَصائِلي تَمحو السَوادا(عنترة بن شداد، 1995م: 46)

ويقول أيضًا:

لَئِن أَكُ أَسوَدًا فَالمِسكُ لَوني وَما لِسَوادِ جِلدي مِن دَواءِ

وَلَكِن تَبعُدُ الفَحشاءُ عَنّي كَبُعدِ الأَرضِ عَن جَوِّ السَماءِ(عنترة بن شداد، 1995: 8)

فهو بسبب هذا اللون الذي كساه بالعار والنقيصة دون غيره من فرسان القبيلة ولايشفع له ذلك شجاعة وبطولة فهو دون هولاء الفرسان لسواد بشرته، لكن يتفاخر بخصائلة البيض الطاهرة الأصيلة التي لا تبقي مجالًا لذمه والتقليل من قدره ومكانته. ومن جماليات اللون ربطه بالحواس الأخرى وخاصة الرائحة وحاسة الشم، فظهر الاستمتاع باللون وانعكاساته ونشره الطيب، لتحقيق المعادل النفسي الذي به ترتاح النفس. لذلك اللون الأسود كما جاء آنفًا كان فيه الدلالات المختلفة وقد اتخذ هذه الدلالات والمعاني من البيئة والظواهر المحيطة بالإنسان في العصر الجاهلي.

اللون الأحمر

اللون الأحمر هو واحد من أقدم الألوان التي عرفها الإنسان في الطبيعة.(محمد علي، 2001م: 57-58) ويتميز بكونه لونًا ساخنًا يشبه وهج الشمس واشتعال النار والحرارة الشديدة. ويُعتبر رمزًا للبهجة والحزن، ويُرتبط دلالة اللون بالعنف والمرح وكثيرًا ما يدل على الدم أيضًا وهو عند العرب عيب وشؤم. الشعراء القدماء كانوا يستخدمون هذا اللون بكثرة نظرًا لدوره الجمالي والمعرفي وأهميته في الوجود والحياة. ومن هنا جاء توظيف الكبير والمتواصل في الأدب العربي، حيث استخدمت الكثير من الكلمات للتعبير عن معانيه المختلفة وقيمته، ونقائه.(عمر، 1997م: 154) على أن الدلالة الأكثر توظيفًا لهذا اللون هي المعني التي تشير إلى الدم والحرب والقتل، وجاءوا بذكر هذا اللون بدرجاته المتفاوتة وأوصافه المختلفة حيث كان هذا اللون ينقسم في تصنيفات عديدة منها الأحمر، والأحمر الصافي المشرق والأحمر القاتم القريب للسواد، والأحمر المختلط بالصفرة، والأحمر المائل للبياض، ونعت العرب أيضًا اللون الأحمر بالألهب، والأشقر، والخشرم، والأقشر.(الثعالبي، 2000م: 127-128) منها قول زهير بن أبي سلمى في حديثه عن الحرب:

فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كُلّهُمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ(زهيربن أبيسلمى، 1963م: 105)

فهنا زهير بن أبي سلمى يتشاءم من هذا اللون أي الأحمر الذي يشبه لون عاقر ناقة صالح(ع)، فهذا اللون نذير شؤم يذكره بالدم والعذاب الذي نزل على قوم عاد نتيجة عقرهم لناقة نبي صالح(ع). أما الأحمر في الخد فهو صفة حسن ووسامة، وقد وصفت بها المرأة دون الرجل ومن ذلك قول عنترة:

وَرِدفٌ لَهُ ثِقلٌ وَخَصرٌ مُهَفهَفٌ وَخَدٌّ بِهِ وَردٌ وَساقٌ خَدَلّجُ(عنترة بن شداد، 1995م: 28)

وهنا يذكر عنترة لون خد حبيبته فهو أحمر يشبه لون الورد وهذا اللون في الخد من صفات الحسن التي توصف بها المرأة. ولذلك على العكس من المثال السابق فإن اللون الأحمر هنا، يحمل في طيأته مظهر من مظاهر اليُمن والصفة الإيجابية. وهنا أيضًا كانت الطبيعة والبيئة المحيطة بالشاعر ومنها الزهور والورد هي المصدر والمعين ليغرف منها معاني ودلالاته للون. وكانت ألوان الهوادج التي تحمل المرأة عند الظعن دائمًا حمراء ومما جاء في ذلك قول زهير:

عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وكِلّةٍ وِرَادٍ حَوَاشِيْهَا مُشَاكِهَةُ الدَّمِ(زهيربن أبيسلمى، 1963م: 101)

وقد عبر الشاعر عن اللون الأحمر بالدم مستلهمًا صورة هذا اللون من هذا السائل الذي يجري في شرايين الإنسان. وقد يريد الشاعر من هذا التوظيف والتوصيف على حد سوا التذكير بالقوة التي تستطلع من الدم، ففي ساحات المعارك تسال الدماء بيد الشجعان، فهو لون-الدم- الذي طغى على التوظيف في الشعر الجاهلي بقوة دون سواه. وهدف الشعراء لتوظيف لون الدم يتضح أن المعارك وكثرة إراقة الدماء فيها لإرهاب العدو وحمله على التسليم لهم وفي ذلك يقول عنترة مخاطبًا سباع الفلاة:

اِتبَعيني تَرَي دِماءَ الأَعادي سائِلاتٍ بَينَ الرُبى وَالرِمالِ(عنترة بن شداد، 1995م: 112)

وهذا النابغة ينذر بإراقة دم الغادر والخائن بقوله:

وَتُخضَب لِحيَةَ غَدَرَت وَخانَت بِأَحمَرَ مِن نَجيعِ الجَوفِ آني(النابغة الذبياني، 1996م: 120)

وفي بعض المصادر جاءت مفردة (قاني) بدلًا من (آني) في البيت وهنا يريد باللون الأحمر الموصوف بالنجيع، هو اللون الأحمر الذي يميل إلى السواد. كما يذكر امرؤ القيس في خضاب الشعر حيث يقول:

كَأَنَّ دِمَاءَ الهَادِيَاتِ بِنَحْرِهِ عُصَارَةُ حِنّاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلِ(امرؤ القيس، 1990م: 56)

وقد جاء استخدام الخضاب هنا في محاولة لإخفاء الشيب ومن ثم مقاومة بوادر الموت الذي يمثله بلون الحياة وهو الدم. فتتغير معاني اللون الأحمر حسب السياق الذي يُستخدم فيه، فما يوظف للإنسان، يختلف عما يوظف للحروب والفروسية والسماء والجمال. ومن هنا يمثل اللون في الإبداع الأدبي عنصرًا أساسيًا من عناصر البناء الشعري فليست دلالة اللون عملية هامشية بعيدة عن الوعي الشعري والإدراك في كثير من الأحيان وإنما هي عملية واعية ذات قصد يبتغي الشاعر من ورائه تقديم رؤيته وموقفه من العالم الذي يتحدث عنه تقديمًا فنيًا ذا منحى جمالي في الدرجة الأولى ويستطيع الباحث أن يدرك بسهولة أن دلالات الألوان تعكس أبعادًا نفسية واجتماعية. ذكر الألوان يجعل من الشعر لوحة نابضة بالحياة بما فيه من تحرك، فهي لوحة تحكي الطبيعة بما تجمعه من الألوان المختلفة.

جاءت صور الشعراء الجاهلية بدائية بسيطة، خالية من الروح وعمق الفكرة. وعدم ذكر كثير من الألوان في أشعارهم وغضّ الطرف عنها هو لجمله أسباب بعضها يعود إلى شخص الشاعر وبالأحرى عوامله النفسية، ويكمن في خواص بعض هذه الألوان المسكنة المهدئة ويكون فيها بعض التجدد والأمل كاللون الأخضر وهذا الذي لم يتحقق لكثير من شعراء العصر الجاهلي. بما أن الواقعية هي السمة البارزة للشعر الجاهلي وهي تكون ترجمة صادقة للحياة الذين عاشوا في ذلك العصر فيمكن الاستنتاج بأنه لا يمكن تحليل الحقل اللوني في الشعر الجاهلي دون النظر إلى تبيين قضية الظاهراتية التأثرية.

النتيجة

توصل البحث بعد دراسة النماذج اللونية في الشعر الجاهلي المتأثرة بالبيئة، إلى نتائج، هي كالتالي:

إن اللون الأسود هو الأكثر شيوعًا في الثقافة النصوصية الجاهلية ويدلّ هذا على الظلم والقساوة المنبعثة من المجتمع الجاهلي والذي تمثل في المعاملة الدونية التي قد عومل بها الشاعر عنترة العبسي الذي هو أكثر الشعراء استخداما للأسود.

توظيف اللون الأبيض أقل من اللون الأسود يدلّ على أنّ المجتمع الجاهلي يحب الشئ خالصًا دون أن يشوبه آخر ولعل مردّ هذا الاستعمال الشائع للأبيض يعود إلى أن الجاهلي لا يفكر في اللحاق بالأمم الأخرى على المستوى الإبداعي والاجتماعي والثقافي...إلخ بل يفكر في البقاء خالصًا.

اللون الأحمر والدلالة الأكثر توظيفًا له هي الدلالة على الدم والحرب والصراع وإراقة الدماء من دون سبب؛ الظاهرة التي كانت من السمات الاجتماعية والثقافية البارزة للعصر الجاهلي.

وينقل الشعراء في شعرهم عبر الألوان واختلافها صورة حية عن البيئة والطبيعة بما فيها من اختلاف وامتزاج في الألوان وانطلاقًا من هذا فإنّ عملية توظيف الحقل اللوني في الشعر الجاهلي ليست إلا ظاهراتية تأثرية من البيئة المحيطة بالشاعر الواعي.

البيئة المحيطة بالشاعر الجاهلي وفقًا للظاهراتية التأثرية شكلت الذائقة اللونية له، وقلة استخدام الشعراء لكثير من الألوان ومنها اللون الأخضر الذي يمثل التجديد والأمل، فهو عائد الى عدم التجديد والتحول في الثقافة الجاهلية.

استنادًا على الظاهراتية التأثرية فإن عدم وجود للألوان الأخرى في العصر الجاهلي يدل على أن المجتمع الجاهلي وكأن الإبداع الثقافي والفكري قد انعدم فيه، وهذا ما يؤكد على وصف المجتمع ذاته بعدم وجود دين علويّ فيه، مصدره ومعينه السماء.

المصادر والمراجع

القران الكريم

ابن فارس، أحمد (1949م)، *مقاييس اللغة*، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ج5، ط1، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.

ابن منظور، محمد بن مكرم (1994م)، *لسان العرب*، ج1و2و3و6و13و14و15، بيروت، دار الصادر.

الأزهري، محمد بن أحمد (2001م)، معجم *تهذيب اللغة*، تحقيق: رياض زكي قاسم، ج3، بيروت، دار المعرفة.

الأنباري، محمد بن قاسم (1987م)، *الأضداد*، تحقيق: محمد أبوالفضل ابراهيم، بيروت، المكتبة العصرية.

بدوي، أحمد أحمد (1979م)، *أسس النقد الأدبي عند العربي*، القاهرة، دار النهضة مصر للطبع والنشر.

البقاعي، شفيق (1985م)، *الأنواع الأدبية مذاهب ومدارس(في الأدب المقارن)*، بيروت، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر.

التبريزي، الخطيب (1998م)، *شرح قصائد العشر*، تحقيق: فواز العشار، القاهرة، مؤسسة المعارف.

الثعالبي، عبد الملك بن محمد (2000م)، *فقه اللغة وسر العربية*، تحقيق: ياسين الأيوبي، بيروت، المكتبة العصرية.

الجاحظ، عمرو بن بحر (1945م)، *كتاب الحيوان*، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

جبري، شفيق (1967م)، *لغة الألوان*، دمشق، مجلة مجمع اللغة العربية.

جودي، محمد حسين (1997م)، *تاريخ الأزياء القديمة*، ط1، عمان، دار الصفاء.

خليفة، عبد الكريم، (1987م). *الألوان في معجم العربية*، ط11، الأردن، مجلة مجمع اللغة العربية.

ديوان الأعشى (1992م)، تحقيق: حنا نصر، بيروت، دار الكتاب العربي.

ديوان الحارث بن حلزة اليشكري (1994م)، تقديم: عمر الطباع، بيروت، دار القلم.

ديوان امرؤ القيس (1990م)، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف.

ديوان ذوالرمة (2006م)، تحقيق: عبدالرحمن المصطلاوي، بيروت، دار المعرفة.

ديوان زهير أبي سلمى (1963م)، شرح: أبو العباس ثعلب، بيروت، دارصادر.

ديوان طرفة بن العبد (1987م)، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

ديوان عبيد بن الأبرص (1975م)، تحقيق: حسين نصار، القاهرة، مطبعة مصطفي البابي الحلبي.

ديوان النابغة الذبياني (1996م)، تحقيق: كرم عباس عبدالساتر، ط3، بيروت، دار الكتب العلمية.

ديوان عمرو بن كلثوم (1991م)، تحقيق: علي أبو زيد، دار سعدالدين، دمشق.

ديوان عنترة بن شداد (1995م)، تحقيق: محمد سعيد مولوي، بيروت: دار الكتب العلمية.

ديوان لبيد بن ربيعة (1999م)، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الصادر.

الزواهرة، ظاهر (2008م)، *اللون ودلالاته في الشعر، الشعر الأردني أنموذجًا*، عمان الأردن، دار حامد.

الزوزني، عبد الله الحسن بن أحمد(1985م)، *شرح المعلقات السبع*، القاهرة، مطبعة مكتبة المعارف.

شفيعي كدكني، محمد رضا (1376ش)، *صور خيال در شعر فارسي*، ط6، تهران، انتشارات آكاه.

صالح، قاسم حسين (1982م)، *سيكولوجية إدراك اللون والشكل*، بغداد، دار الرشيد للنشر.

عبدالرحمن، نصرت (1976م)، *الصور الفنية في الشعر الجاهلي*، الأردن، عمان، مكتبة الأقصى.

عمر، أحمد مختار (1997م)، *اللغة واللون*، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، ط2، عالم الكتب، القاهرة.

غربال، محمد شفيق وزملاؤه (1986م)، *الموسوعة العربية الميسرة*، ج2، لبنان، دار نهضة.

محمدعلي، إبراهيم (2001م)، *اللون في الشعر العربي قبل الإسلام: قراءة ميثولوجية*، ط1، طرابلس، جروس بروس.

محمود خليل، أحمد (1996م)، *في النقد الجمالي-رؤية في الشعر الجاهلي*، ط1،بيروت، دار الفكر المعاصر.

همام، محمد يوسف (1930م)، *اللون*، ط1، القاهرة، مطبعة الاعتماد.

الرسائل والمجلات

إبراهيم، أحلام هادي (2022م) القيم الخلقية في شعر الفرسان الجاهليين، مجلة الأستاذ، المجلد61، العدد1، صص1-22.

آدامي، خميسي (2021م)، *من أجل لغة خضراء-محاولة في فهم أدب البيئة ونقده*، مجلة أبوليوس، المجلد8، العدد2، صص100-114.

آل سالم، عبدالزهراء إسماعيل (2014م). *البيئة وأثرها في لغة على بن الجهم تحليل دلالي وصف الناقة إنموذجًا*، مجلة كلية التربية الأساسية، المجلد19، العدد81، صص211-228.

جواد، رعد عبدالجبار (2015م)، *توظيف اللون في شعر عنترة بن شداد العبسي*، مجلة الأستاذ، المجلد الأول، العدد214، صص47-74.

سعيد، جميل (1956م)، *إحساس شعراء العرب بالألوان والأصوات*، بغداد، مجلة كلية الآداب والعلوم.

الشوك، علي (1961م)، *اللون في الشعر العربي القديم*، بغداد، مجلة الأديب العراقي، السنة الأولى، العدد2.

الصحناوي، هدى (1981م)، *اللون ودلالاته في الشعر العربي السوري الحديث*، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، سوريا.

عباس، جنان خليفة (2021م)، *اللون ودلالته الرمزية بين القرآن الكريم والشعر الإسلامي شعراء النبي محمد أنموذجًا*، مجلة الأستاذ للعلوم الإنسانية والإجتماعية، المجلد60، العدد 2، صص241-263.

متوج، سمران نديم (2004م)، *دلالات اللون ورموزه في الشعر الجاهلي*، رسالة دكتوراه، جامعة تشرين، سوريا.

المغربي، حافظ (2004م)، *اللون بين فلسفة الفن والشعر*، جامعة ملك سعود، جده، مجلة جذور، النادي الثقافي العدد8.

هاشم، منى عيسى (2015م)، *الانطباع البصري في الشعر الجاهلي*، مجلة الأستاذ، العدد 215، صص25-36.

الهدروسي، محمد (2003م)، *تجليات اللون في شعر شعراء المعلقات*، أطروحة دكتوراه، الأردن، جامعة اليرموك.